الفصل الثاني

عالم البحر المتوسط

حتى اصطدامه بالفتوح الإسلامية

تحديده. العناصر السائدة فيه ـ الأحوال العامة للدول صاحبة السيادة ـ الامبراطورية البيزنطية وأحوالها الاقتصادية والحربية والدينية ـ ايطاليا وتوزع السيادة فيها بين أكثر من سلطة ـ غاله وانقسامها بين الجرمان والرومان . دولة الفرنجة وأحوالها العامة . عناصر الضعف فيها . انفلات السلطة الى حجاب القصر اسبانيا والمجتمع القوطي .

المقصود بعالم البحر المتوسط ، الأقاليم والبلاد التى تحف بشواطئه من جميع الجهات ، فضلا عن جزره المنتشرة فيه. ويقتسم السيادة فى هذا العالم ثلاثة عناصر أساسية : العنصر الإغريقى أو اليونانى أو الرومى ، وتمثله الإمبراطورية البيزنطية ، وبقايا العنصر اللاتينى ، ويحكم فى مناطق مبعثرة، وعنصر جديد طرأ على أوربا ، وظل يقرع أبوابها منذ القرن الثالث الميلادى ، وهذا هو العنصر الجرمانى أو التيوتونى ، والعنصر الأخير هو الذى قدر له أن يشكل تاريخ أوربا الحديثة ، فقد طوى أغلب السيادات القائمة فى هذه البقعة من العالم، وبه زالت فكرة الدولة العامة ذات السيادة العالمية ، وهى السيادة التى حققها الرومان فى عالم البحر المتوسط لبضعة قرون .

أما الدولة البيزنطية أو دولة الروم ، كما عرفها العرب ، فهى تسيطر على أغلب شواطئ البحر المتوسط وجزره ، وعاصمتها بيزنطة Byzantium أو القسطنطية أو روما الجديدة ، وتشمل أملاكها الممتدة على سواحل البحر الشمالية : شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها ، وآسيا الصغرى ، ومن الشرق يتبعها سوريا وفلسطين ، ومن الجنوب : مصر وشمالى أفريقية وكانت أفريقية حديثة العهد بالعودة إلى حظيرة بيزنطة ، بعد زوال دولة الوندال منها (٥٣٣م)[1] ، كذلك امتد سلطان بيزنطة السياسى إلى وسط

---

(١) راجع شمالى أفريقية والوندال للمؤلف .

إيطاليا وجنوبها وبعض بلاد محدودة ، ولفترة قصيرة ، على ساحل أسبانيا الجنوبى الشرقى(١)

وتلخص أحوال الإمبراطورية البيزنطية العامة، فى أنها تمتعت خلال القرن السادس الميلادى — وهو القرن السابق لقرن الفتوح الإسلامية — بالقوة والقدرة الاقتصادية ، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى ولاياتها الكبرى ، بصفة خاصة ، وهى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ولكل من هذه الولايات قاعدة عالمية الشهرة ، هى القسطنطية وإنطاكية والإسكندرية . قامت هذه القواعد مراكز صناعية كبرى لعالم البحر الأبيض كله ، وصدرت إليه منتجاتها من المنسوجات والبردى والزجاج والأوانى المعدنية ، كذلك كانت تصدر ما يرد إليها براً وبحراً من بلاد الصين وجزر الهند الشرقية ، فقد كانت مصر نهاية طريق البحر الأحمر ، وسوريا نهاية طريق الخليج العربى وكذلك الطرق البرية المخترقة لبلاد فارس ، وكذلك كانت القسطنطية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود(٢) .

ولم تغفل بيزنطة عنايتها بالقوات البحرية ، ولا سيما فى القرن الذهبى المشهور ، بل إن هذه العناية هى التى شكلت نظامها ، منذ عهد الإمبراطور

---

(١) انظر : دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٠٢ — ١٠٥ ،

Bayet (H. G.) T. I. PP. 626 - 628

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة أحمد عيسى وتقديم ومراجعة المرحوم محمد شفيق غربال) ص ١٦ (المقدمة) .

جستنيان Justanius (ت ٥٦٥ م) وهرقل (ت ٦٤١ م) وعهود من جاء بعدهما(١) .

واتجهت همـــة الأباطرة البيزنطيين إلى احتلال الثغور البحرية والسواحل ، وتجنب التوغل فى الأراضى الداخلية، ومن ثم قلت حاجتهم إلى الجيوش البرية الضخمة(٢) .

ومما ساعد على تفوق بيزنطة البحرى ، فى تلك الفترة ، أنه لم يكن لها منافس ، وهى فى ذلك تشبه تفوق بريطانيا البحرى فى مطلع العصور الحديثة ، فكان لبيزنطة فى العصور الوسطى سبته (Ceuta) وبعض الساحل الجنوبى لأسبانيا ، والساحل الأفريقى الشمالى وجزر سردانية وقورسيقه وصقلية وكريت وقبرص ، ومدينة الإسكندرية فضلا عن جنوه ورافنا ونابلى والدردنيل والقرم. ولم تقتصر بيزنطة على البحر المتوسط بل تجاوزته إلى غيره من البحار والأقطار ، وكان هذا التجاوز هو سر المنافسة الحادة بين الروم والفرس(٣) .

غير أن بيزنطة قد شقيت بالخلافات الدينية شقاء كبيراً ، بل إن الصراع المذهبى هو المشكلة المزمنة التى لازمت الإمبراطورية البيزنطية

---

(١) انظر : بينز : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة مؤنس وزميله) ص ٢٦٩ ـ ٢٧٦
Foord, E., The Byzantine Empire, pp. 203-212, Diehl, Ch. & Marcais, G. Le Monde Orientale De 395 à 1081 (H. G.) T. III, p. 508, Lindsay. J. , Byzantium into Europe. pp. 395 - 405.

(٢) أرشيبالد لويس ص ١٦ ـ ١٨ (مقدمة غربال) .

(٣) أرشيبالد لويس ص ١٨ ـ ١٩

طوال تاريخها، حتى آخر لحظة من حياتها، فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى[١] . وكان لهذا أثره البالغ فى فشلها فى حماية أقاليمها السورية والمصرية والأفريقية ، عندما غزتها الجيوش الإسلامية زمن الأمبراطور هرقل (ت ٦٤١م) ، والعجيب أن هذا الفشل وقع بعد انتصار الأمبراطور هرقل نفسه على الفرس وردهم إلى بلادهم ، وذلك فى حرب ، اعتبرت فى نظر بعض الكتاب ، مثلا مبكراً للحروب الصليبية ، وإن كانت ضد عباد النار (٢) .

ويعلق أرشيبالد لويس A. Lowis ، على انتصار العرب هذا على الروم بقوله(٣) :

« لقد نقض انتصار العرب على بيزنطة ، انتصار الإسكندر على دارا[٤]، وانتصار روما على هانيبال(٥) ،وانتصار الإمبراطور أورليانوس

---

(١) انظر : فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

(٢) انظر Grégoire, H' , The Byzantine Church (In Byzantium into Europe Ld. by Baynes & Mors) pp. 86 - 185 . Lindsay, op. Cit. . pp. 171 - 220. Diehl & Marcais, op. Cit. pp. 21 - 86 . أومان : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة بدر) ص ١١٠ ـ ١٢٣ ، بينز (ترجمة مؤنس وزميله) ص ٩٥ ـ ٢١٧ .

(٣) القوى البحرية ص ٢٠ .

(٤) انتصر الاسكندر الأكبر المقدونى على دارا ملك فارس فى أكتوبر عام ٣٣١ ق.م فى وقعة جوجاميلا Gaugamela قرب نينوى ، وذلك بعد فراغه من فتح مصر فى السنة السابقة ، وأوغل الإسكندر فى أواسط آسيا حتى وصل الهند . وبوفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق . م بدأ ما عرف فى التاريخ باسم العصر الهلنستى Hellenistic Age ، وهو العصر الذى انتهى بوقعة أكتيوم Actium البحرية عام ٣١ ق . م (انظر : نصحى : مصر و عهد البطالمة والرومان ـ تاريخ مصر العام ـ ص ٦٤ ـ ٦٦ ، Bury, J. . History of Greece. p. 775.

(٥) توفى هانيبال ملك الفينيقيين عام ٤٠٦ ق . م

على زنوبيا(١) » . ومعنى ذلك رجحان كفة الشرق على الغرب .

والمعروف أن الإمبراطورية البيزنطية، هى الدولة الأوربية الآسيوية الأولى التى اصطدمت بالفتوح الإسلامية فى حوض البحر الأبيض .

أما إيطاليا فى تلك الفترة ، والعرب يسمونها « البر الطويل » ، فقد وقعت فريسة الانقسامات الداخلية ، بعد أن انتهى أمر الأمبراطورية الرومانية فى الغرب ، منذ عام ٤٧٦ م ، على يد أدواكر زعيم المعاهدين Faederati فى الجيش الرومانى(٢) .

اقتسم الحكم فى إيطاليا أكثر من سلطة واحدة ، فأشرف البيزنطيون على أرخونية رافنا، وحددوها من نهر البو شرقى جبال الإبنين حتى مدينة أنكونا على الساحل الغربى للبحر الأدرياتى ، وذلك بعد أن أزالوا دولة

---

(١) زنوبيا العربية المتغطرسة الجميلة ، ملكة تدمر أو باليرا Palmyra هى زوجة أذينة الذى منحه الرومان لقب « دوق الشرق » Dux Orientis . خلفت زوجها على العرش نيابة عن ابنها عام ٢٦٧ م ، وذلك على أثر مقتل زوجها بإيحاء من روما . واسم زنوبيا بالآرامية « بات زبى » وبالعربية « الزباء » وكذلك « زينب » ، ويسمى ابنها الذى حكمت باسمه « وهب اللات » أو « عبد اللات » . عرفت هذه الملكة بالقوة والطموح ، ونجحت فى توسيع حدود مملكتها ، فانتزعت مصر لفترة قصيرة ، كما استولت على جزء كبير من آسيا الصغرى وأزالت السيادة الرومانية عنها وطردت حاميات الرومان عام ٢٧٠ م ، ثم نودى بابنها الصغير ملكا على مصر ، وأصدرت عملة بدون رأس الامبراطور أورليانوس Aurelianus فلم يسع الامبراطور الرومانى إلا محاربتها ، وجاء على رأس جيشه ودخل تدمر فى ربيع عام ٢٧٢ م ، فهربت زنوبيا ، لكنها وقعت فى الأسر وقيدت بسلاسل ذهبية . (انظر : حتى ـ ترجمة نافع ـ ص ٨٨ ـ ٩١) .

(٢) انظر نهاية الامبراطورية الرومانية فى الغرب المؤلف (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ـ م ٢٠ ـ العدد الثانى ـ ديسمبر ١٩٥٨ ـ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٢) ، أرشيبالد لويس ص ١٥ .

القوط الشرقيين عام ٥٥٠ م زمن الإمبراطور جستنيان(١) ، وكذلك حكمت بيزنطة الجزء الجنوبى من إيطاليا وجزيرة صقلية ، ودخل الغزاة الجدد اللومبارديون ، وهم جرمان ، عقب وفاة الإمبراطور جستنيان عام ٥٦٥ م وأسسوا لهم مملكة (٢)، المنطقة التى عرفت باسمهم فى شمالى إيطاليا عام ٥٦٨ م ، بزعامة ملكهم البوين Albuin ، واشتهر اللومبـــاردیون بالتخريب والتدمير ، ولم تسلم روما من نهبهم ، وامتد سلطان مملكة اللومبارد إلى الدوقيتين الكبيرتين فى جنوب إيطاليا وهما: سبوليتم Spoletum وبنفتم Beneventum (٣) . وقد ظلت مملكة اللومبارد حتى عام ٧٧٤ م ، حين أزالها الفرنجة المناصرون للبابوية . ونظراً للتخريب الذى استهدفت له إيطاليا من جراء حروب جستنيان لاستعادة إيطاليا من القوط الشرقيين وما تلا ذلك من تخريب اللومبارديين ، يعيب بعض الكتاب على مشروع حركة الاسترداد reconquest الذى قام به جستنيان ، والذى أدى إلى تعرض إيطاليا لكثير من الكوارث ، إذ يقول فشر ، معقباً على غلطة جستنيان فى إزالة دولة القوط الشرقيين ، التى احترمت التقاليد الرومانية.

« والواقع أن المملكة التى وقفت من الروح والتقاليد الرومانية هذا الموقف الحميد ، استأهلت لأن تصبح زعيمة بإنقاذ إيطاليا من سلسلة الحروب الطويلة والفتن الداخلية التى تعرضت لها بلادها المنكودة طوال تاريخها منذ القرن السادس الميلادى ، إذ كان فى استطاعة القوطيين أن

---

(١) انظر Deanesly. M. . A History of Early Medieval Europe (476 - 911) pp. 33 - 53)

(٢) يسميها القلقشندى « مملكة اللنبردية » (صبح الأعشى ج ٥ ص ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٣) فشر (ترجمة زيادة والباز) ص ٥١ Hunt. W. , History of Italy. pp. 7 - 9 . Deanesly. op. Cit. pp. 245 - 259 . Pirenne. H. , A History of Europe. pp. 39 - 45.

يجعلوا من أنفسهم وصفاتهم الحربية والسياسية حمى لشبه الجزيرة ، بعدأن ذهبت ثلث الصفات عن أهلها الأصليين منذ قرون، ومن هنا تتضح جسامة الغلطة التى انتهت بالقضاء على القوط الشرقيين ، فلو أنهم ظلوا وشأنهم ، لما حدثت الغزوات والفتوحات اللومباردية فى شمالى إيطاليا، ولما قامت الدولة البابوية فى روما ، ولما أحييت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، بل ربما تحققت الوحدة السياسية الإيطالية على أيديهم فى القرن الثامن الميلادى »(١).

ولاشك أن السلطة الثالثة، التى اقتسمت الحكم فى إيطاليا، هى البابوية فإن من أهم نتائج سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، ظهور سلطة البابا السياسية ، إذ تطلع إليه الإيطاليون ، بعد أن غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية فى إيطاليا. فانتقل مركز الأهمية والتوجيه والقيادة من قصور الأباطرة السياسيين إلى أروقة اللاتران Lateran ، أى إلى كنيسة روما(٢).

وفى غاليا gallia(٣) ، انقسمت السلطة بين ثلاث دول جرمانية ناشئة، أولاها : دولة القوط الغربيين ، فى منطقة الحدود بين غاله وأسبانيا ، وهى

---

(١) قارن : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) انظر : Finlay, G., History of the Byzantine Empire. pp. 243 - 244. Painter. pp. 104 - 120. Hunt, pp. 16 - 18. Levtchenko. M. V., Byzance. Des Origines a 1453 (Trad. de Pierre Mabille) PP. 135-141. Lindsay. op. Cit. p. 221 Sqq. - Foord. op. Cit. PP. 180-202. Vassilies A. A., History of the Byzantine Empire. pp. 136-139. 573-594. Bailly. A. - Byzance. PP. 163 - 175. C. Med. H. - Vol. III. p. 148. Vol. V. P. 167.

(٣) عن غاله قبل الفتح الجرمانى ، انظر : Hubert. H., The Greatness & Decline of Celts (Lod. , 1934)

المنطقة المعروفة باسم سبتمانيا أو منطقة المدن السبعة(١) ، وذلك بعد أن طردهم الفرنجة من أكويتانيا .

والدولة الثانية، هى دولة البرجنديين فى حوض الرون و منطقة سافوى، أقام البرجنديون دولتهم فى جنوبى غاله منذ أواخر القرن الخامس الميلادى وذلك بعد أن قضى الهون Huns على دولتهم الأولى فى فرمز Warms ومايز Mayence وسبير Speyer . وملك البرجنديين المشهور فى نهاية ذلك القرن هو جندوباد Gundobad ومن أميرات البيت البرجندى الأريوسى المذهب ، كلوتيلدا Clotilda الكاثوليكية ، وهى التى تزوجت من كلوفس clovis ملك الفرنجة، وكان لها أثر كبير فى اعتناق زوجها ورعاياه من الفرنجة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، ولهذا نتائجه البعيدة فى مستقبل الفرنجة(٢) .

أما الدولة الثالثة التى سادت فى غاله ، فهى دولة الفرنجة Franks ، أعظم ممالك الجرمان على الإطلاق ، ومؤسس هذه الدولة كلوفس (٤٨١ — ٥١١ م) . وتعرف باسم الدولة الميروفنجية . أو « العائلة الميروفنجانية » . فيما عبر التونس(٣) . نسبة إلى ميروفش Merovch جد كلوفس . ومن أهم أسباب عظمة هذه الدولة ، وبقائها أكثر من غيرها ، أنها خلفت من

---

(١) هذه المدن هى : أربونه Narbonne ونيم Nimes وآجد Agde وبيزير Beziers ولوديف Lodeve وقرقشونه Carcasonne وماجلون Maguelone . وكانت منطقة سبتمانيا أولى المناطق التى زحفت إليها السيادة الإسلامية ، بعد فتح أسبانيا فيما بعد (انظر دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ٨٢ — ٨٤ ، Eyre. . (Ed.), European Civilistion. p. 50 (

(٢) Lavisse. E., Histoire de France. T. I. PP. 43 - 66 ; C. Med. H. . Vol. III. PP, 134 - 36. H. G. T. I, PP. 97 - 108, 121 - 122. Deanesly. op. Cit. P. 30. Cartellieri. O.. The Count of Burgundy (Studies in History of Civilization). pp. 24. 164 - 180.

(٣) أنظر المسالك ص ١١٣ .

عداها من سائر الجرمان ، مثل القوط والوندال والبرجنديين والسويف (الجلالقة) واللومبارد وغيرهم ، إذ اعتنقت المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، فوافقت بذلك مذهب رعاياها من الرومان الغاليين ، كما وافقت البابوية وظفرت بتأييدها ، حتى لقب كلوفس بملك الرومان Rox Romanovum [١] .

اعتمدت دولة الفرنجة على رجال الدين ، ومن أهم أركان سياستها ، التبشير بالمسيحية فى الأقاليم الوثنية البربرية مثل بلاد السكسون والألمان وغيرهم ، وتضمن التبشير بالمسيحية نقل المدنية الرومانية والقانون الرومانى إلى تلك الأصقاع [٢] . وتحمس الفرنجة لحماية العقيدة المسيحية ، مما كان له أثره فى النضال الإسلامى المسيحى ، وليس من باب الصدفة أن فرنسا ، دون غيرها ، من سائر دول الجرمان ، هى التى ساهمت بالنصيب الأوفى فى الحروب الصليبية فيما بعد ، وأن لغتها هى التى سادت فى الإمارات اللاتينية بالشرق [٣] .

كانت مملكة الفرنجة Regnum Francorum موحدة زمن كلوفس وخلفائه المباشرين ، وتعزى هذه الوحدة إلى شخصية كلوفس ومقدرته ، وإلى حروبه الظافرة التى حطم بها قادة الجرمان الآخرين ، كما أزال فى عام ٤٨٦ م البقية الباقية من حكم الرومان فى غاليا ، وهى مملكة سياجريوس Syagrius وعاصمتها سواسون Soissons [٤] .

---

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٥ ، H. G. T. I, PP. 121 - 122

(٢) فشر ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) انظر Barker, E., The Crusades, pp. 3 - 10 والترجمة العربية (للدكتور الباز) ص ٢٤ - ٢٥ ، Runciman, S., A History of the Crusades, Vol. I. PP. 106 - 99.

(٤) Lavisse, op. Cit, pp. 94 - 96, 100 - 108, Deanesly, op Cit, PP. 58 - 60, Fonk - Brentano : Histoire de France, PP. 200 - 207.

وعندما استقرت حدود مملكة الفرنجة عند جبال البرانس ، واستقر اللومبارد فى حوض البو شمالى إيطاليا ، عندئذ تحولت الروح الحربية الجرمانية إلى صراع داخلى . فلم يكن للفرنجة أو غيرهم من الجرمان ، خبرة أو رصيد سياسى سابق فى معالجة الرعايا ، ورغم أنهم استخدموا بعض النظم الرومانية إلا أنهم لم يفهموا قيمة الحكومة المركزية ولم يعقلوها كما عقلها العرب ، مثلا ، فى فارس وغيرها من البلاد التى فتحوها ، وذلك بالإبقاء على النظم القائمة الثابتة(١) .

سار الفرنجة على قاعدة خطيرة ، كانت أهم معاول ضعفها وتمزيقها ، تلك هى ، تقسيم الملك كالإرث بين الأبناء ، ويشبه هـــذا ما وجد عند السلاجقة والدول الإسلامية التى نبتت فى أحضانهم مثل الدولة النورية والدولة الصلاحية .

جهل الفرنجة فكرة الدولة State وقيمة التجانس أو الحدود الاستراتيجية لأملاكهم ، أو حتى الإمكانيات الاقتصادية التى ينبغى أن تتوافر ، ولم يكن أمامهم سوى اعتبار واحد ، هو تقسيم الإرث الموجود ، الثابت والمنقول بين المستحقين من أبناء البيت الميروفنجى(٢)

وأول تقسيم مشهور فى تاريخ الفرنجة ، ماوقع فى عام ٥١١ م عقب وفاة كلوفس ، فقد قسمت المملكة بين أبناء كلوفس الأربعة ، فنشأ من ذلك أربعة ممالك فرنجة متنافسة(٣) ، على أن التقسيم لم يقتصر على الأقاليم ، بل

(١) Deanesly, op. Cit. , p. 261

(٢) Ibid. , p. 262

(٣) H. G. T. I. p. 124. Funk - Brentano. op. Cit. , p. 265, Lavisse. op. Cit. , pp. 101 - 120

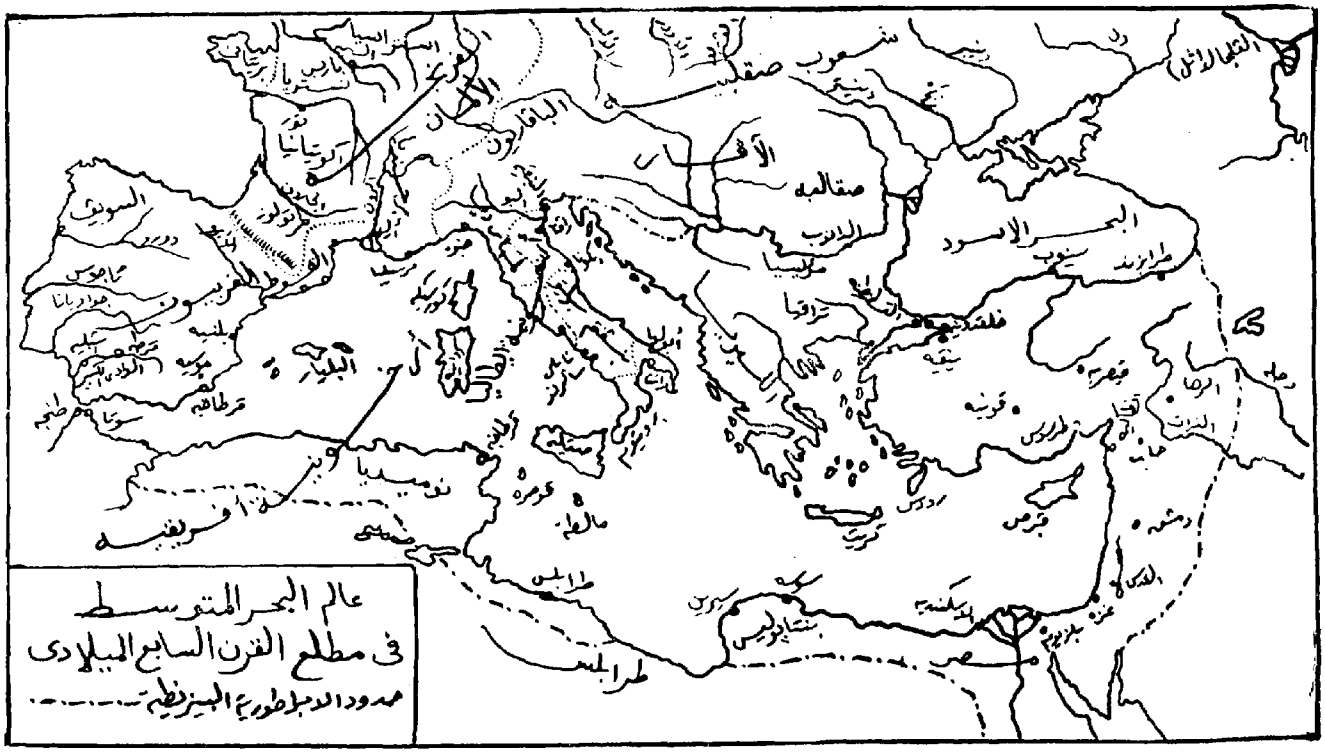
عالم البحر المتوسط
فى مطلع القرن السابع الميلادى
حدود الامبراطورية البيزنطية

شمل كذلك تقسيم المدينة الواحدة بين أكثر من واحد ، مثل ميناء مرسيليا وباريس العاصمة نفسها ، ففى عام ٥٦٧ م قسمت باريس بين ثلاثة أخوة ، حتى إن الحصة التى لم تقع فيها الأسقفية ، أقام فيها صاحبها أسقفية خاصة به[١]

والملحوظ على الفترة الممتدة من ٥٦١م – وهى سنة وفاة لوثر الأول ابن كلوفس — إلى ولاية شارلمان عام ٧٦٨ م ، وتقدر بأكثر من قرنين ، أنها فترة مضطربة ، اشتد فيها الصراع ، ليس فقط بين الممالك الفرنجية التى انقسمت إليها دولة الفرنجة ، ولكن كذلك بين ملوك الفرنجة الميروفنجيين وبين حجاب قصورهم ، مما أدى إلى تدهور التقاليد اللاتينية فى غاله ، ولا سيما فى الجنوب .

كان حكم الميروفنجيين خلال تلك الفترة حكماً اسمياً ، فقد انتقلت السلطة الفعلية تدريجياً إلى حجاب القصر ، وبرزت سلطة حجاب قصر مملكة أستراسيا Austrasia الفرنجية ، وهى الجزء الشرقى من فرنسا[٢]، وهؤلاء الحجاب من سلالة أرنولف Arnulf أسقف متز Metz ، أمثال بيبين Pepin الأول وبيبين الثانى وشارل مارتل ، ومن هذه الأسرة قامت أسرة الكارولنجيين Garolingians التى أنهت حكم الميروفنجيين ، فى منتصف القرن الثامن الميلادى[٣] .

---

(١) Deanosly, op. Cit., p. 267.

(٢) انظر ص ٧٤

(٣) موطن الكارولنجيين الأصلى هو بلجيكا الحالية تقريبا ، وبرز فيها شخصيتان هما : بيبين صاحب بلدة لاندن Landen بمقاطعة برابانت Brabant الحالية ، ودوق أرنولف ، الذى صار أسقف متز فيما بعد ، وصار بيبين حاجباً لقصر استراسيا عام ٦٢٢ م ، وزوج ابنته لابن أرنولف ، وكان من نتاج هذه المصاهرة بيبين الثانى الذى تولى رئاسة البلاط فى أوستراسيا عام ٦٨١ م ثم فى نوستريا Neustria – وهى الجزء الغربى من فرنسا – عام ٦٨٧ م (انظر ص ٧٥ – ٧٦) .

وزاد من مركز حجاب قصر أستراسيا ، أنهم هم الذين انبروا لحماية فرنسا من الخطر الخارجي ، ولاسيما خطر الفريزيين Frisin المقيمين على ساحل بحر الشمال حتى نهر الفيزر ، هزمهم بيبين الثانى (ت ٧١٥ م) واستعاد المدن التى استولوا عليها ، كما هزم الألمان Alemans والبافاريين ، فمهدت جهوده لسيادة خلفائه من بعده ، وصار بيد هؤلاء الحجاب تولية الملوك الميروفنجيين وعزلهم(١) .

ومن أبرز خلفاء بيبين الثانى حفيده شارل مارتل (٧١٩—٧٤١م) ، الذى اشتهر بالشجاعة والكفاية ، قام بالغزو المنظم فى كل صيف ، وحطم الأعداء المحيطين بدولة الفرنجة ، ونجح فى جميع حروبه ، فأخضع دوقية ألمانيا بعد أن شن عليها أكثر من حملة ظافرة ، فى أعوام ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٤ ، ٧٣٨ م كما أخضع بافاريا بعد حملتين ناجحتين فى ٧٢٥ ، ٧٢٨ م ، وكذلك حارب الفريزيين عام ٧٣٣ ، ٧٣٤م (٢) ، وهو الذى هزم المسلمين فى واقعة بلاط الشهداء ، كما سنرى فيما بعد ، ويقال إنه لقب بالمطرقة Martel لأنه دحر أعداء الفرنجة ، أو لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية فى غاليا من صارم الضربات التى استلزمها فساد رجال الدين فى عصره (٣) .

وكانت دوقية اكويتانيا ، فى غاله ، شبه مستقلة ، ويحكمها دوق فرنجى هو أود Eudes . ويتحين الفرص لتوسيع دوقيته على حساب الميروفنجيين ، فحاربه شارل مارتل وهزمه عام ٧٣١ م ، لكنه لم يخضع لنفوذه ، غير أن

---

(١) Deanesly, pp. 276 - 282. Lavisse, op. Git., pp. 257 - 261. Funk - Brentano, pp. 280 - 290, Pirenne, H., A History of Europp pp. 72 - 79.

(٢) Dsanesly, op. Git., pp. 276 - 285, Lavisse, pp. 257 - 261

(٣) Deanesly, op. Cit., p. 285 ، فشر ص ٧٦

تعرض دوقية اكويتانيا ، بحكم موقعها ، لخطر المسلمين ، حمل الدوق على التحالف مع شارل مارتل ضد العدو المشترك . وهم المسلمون ، ومن ثم امتد نفوذ شارل مارتل على كل فرنسا تقريباً .

وفى زمن شارل مارتل صاحب قصر الميروفنجيين، وابنه بيبين القصير صاحب القصر، ثم ملك الفرنجة ، وحفيده شارلمان ، كان الصراع قد اشتد بين الفرنجة والمسلمين (١) .

وفيما يتعلق بأسبانيا ، كان صاحب الأمر فيها ، هم القوط الغربيون ، البرابرة الجرمان ، ولقد ترك القوط أسبانيا ، فى مطلع القرن الثامن الميلادى ، كما دخلوها أول مرة ، فى مطلع القرن الخامس ، مشهداً من مشاهد البؤس والفاقة ، دخلوها وهى مقسمة ضياعاً Latifundia بين أقلية من السادة الرومان ، تتمتع بكل الامتيازات ، وسط محيط من العبيد الأذلاء ، ولا بد لمثل هذا المجتمع المنهار ، من أن يسقط عند أول غزو، هكذا كان الحال عند نهاية حكم القوط ، فقد تركوها على هـذا النحو أو ما يقرب منه (٢) .

قام المجتمع القوطى على نظام الطبقات ، فاستولى النبلاء فيه ورجال الدين على نحو ثلثى الأراضى الخصبة ، مع الإعفاء من الضرائب(٣) ، وضم جميع السلطات المدنية والعسكرية والروحية،إذ كان رجال الدين يشاركون فى حكم البلاد . أما جمهور الناس من التجار وصغار الملاك ، فوقع عليهم

---

(١) انظر ما يلى .

(٢) Dozy, R., Les Musulmans d'Espagne, T. II, pp. 4 - 13, Oman, Ch., The Dark Ages, pp. 131 - 134, Bradley, H., The Goths, p. 348

(٣) العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٤٤ ـ ٤٥ ، دولة القوط الغربيين ص ١٢٥ ـ ١٢٨ ، التونسى أقوم المسالك ص ٣٤٩ ،
Scott, Vol. I, p. 184, Lavisse (H. G.) T. I, p. 247

عبء دفع الضرائب وإشباع نهم الحكام ، ثم طبقة العبيد ، وهذه مرتبطة بالأرض ، تنتقل معها من مالك إلى آخر ، وهى طبقة كثيرة العدد ، ومع أن الكثير من أفرادها أقام بالمدن وزاول بعض الصناعات ، إلا أنهم حرموا جميعاً من شتى الحقوق. وبجانب هذه الطبقات توجد جالية كبيرة لليهود ، وتتحكم هذه الجالية فى موارد البلاد الاقتصادية ، شأنهم فى كل مكان، وقد أحس ملوك القوط بوطأتهم فناصبوهم العداء وتواصوا بالتنكيل بهم واستئصال شأفتهم ، وصدرت عدة قوانين ضدهم ، من ذلك ما أصدره الملك شنشادس Sienaud (ت ٦٣٦ م) من قوانين تقضى بطردهم من المناصب العامة ، وربما كانت القوانين التى أصدرها الملك إرفج Ervig (ت ٦٨٧ م) من أقواها وأشدها تنكيلا باليهود(١) .

نظر اليهود لأحوال أشقائهم عبر الزقاق ، فى شمالى أفريقية ، حيث ينعمون بالتسامح فى ظل السيادة الإسلامية الجديدة ، فاتصلوا بهم ودبروا مؤامرة للقضاء على حكم القوط ، حقيقة اكتشفها الملك أيقة Egica (ت ٧٠١ م) ، وأجبر اليهود على اعتناق المسيحية إلا أنهم لم يكفوا عن الكيد والتدبير ضد حكم القوط ، وهذا يفسر ترحيب اليهود بالمسلمين عندما دخلوا أسبانيا، وهم فى ذلك يشبهون أقباط مصر فى العصر البيزنطى، عندما رحبوا بالفتح العربى الإسلامى (٢) .

ومن عناصر ضعف المجتمع القوطى كذلك ، الصراع المستمر على

---

(١) راجع دولة القوط الغربيين المؤلف ص ١٦٧ – ١٦٨ وانظر :

Scott. I. PP. 172 - 178, 178-184, 192. Leclercq. H., L'Espagne Chrétinne PP. 842 - 4.

(٢) Leclerq. op. Cit. PP. 306, 333 362. Deanesly. PP. 104. 106. Dozy II PP. 25 - 7 Pirenne. P. 155. Lévi - Provencal. Histoire de L'espagne Musulmane. T. I. PP. 1 - 7. H. G. T. I. P. 248. Oman. op. Cit. PP. 233 - 4. Diehl. ch. L'Afrique Byzantine. P. 589.

العرش ، إذ كانت الملكية القوطية قائمة على الانتخاب ليظل العرش حقاً مشاعاً بين القادرين على اغتصابه ، وهذا بجانب حقد الرعايا من الرومان الأسبان لاختلافهم فى المذهب الدينى ، ولم تفلح سياسة القوط الدينية عندما تحولوا إلى الكاثوليكية فى أواخر القرن السادس الميلادى ، فقد جاء هذا التحول متأخراً (١)، كما لم تفلح تشريعاتهم القانونية للمزج بين القوانين الجرمانية والقوانين الرومانية ، حتى تزول الصفة الشخصية عن التشريعات الجرمانية(٢) .

ظلت الكراهة قائمة بين الرعايا والحكام، كما ظلت مؤامرة الصراع حول العرش ، وآخرها مؤامرة لوذريق Rudericus (٣) التى انتهت بطرد الملك غيطشه Wetiza وتولى لوذريق العرش (٧١٠ — ٧١١ م) فاستعانت الأسرة وأنصارها بالمسلمين ، وما كاد عام ٩٢ هـ — ٧١١ م يأتى حتى تعرضت دولة القوط الغربيين ، لأخطر ما تعرضت له فى حياتها ، ومهما قيل عن عوامل ضعفها ، وكثرة ما خاضت من حروب وفتن مهلكة ، فلم يكن هناك خطر يهدد أسبانيا البربرية بالزوال، قبل وصول فرسان العرب المسلمين إلى إفريقية ، جاء هذا الخطر سريعاً وحاسماً (٤) .

---

(١) Lavisse, E. (H. G.), T. I, P. 249, Bradley, PP. PP. 381 - 382, Leclercq, P. 279.

(٢) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٣ — ١٤٨ Scott, I, P. 184, De Marlès M., Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et En Portugal, PP. 58 - 60

(٣) يسميه القلقشندى : غطسه (راجع صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٨ — ٢٤١) .

(٤) راجع دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٠ — ١٢١ ، العبادى ص ٤٦ ، Lévi - Provencal, op. Cit, PP. 1 - 7, Scott, I, pp. 217 - 19, Lot, F., Les Invasions Germaniques, p. 187.